

الشك الديكارتي لدى طه حسين: براديجم معرفي أم تلقي باهت؟

محمد خيط

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار ❖ قسنطينة ❖ الجزائر

Abstract

This article attempts to approach the critical consciousness of one of the pioneers of critical inter-culturality in modern Arab culture, namely Taha Hussein who introduced us to the theory of Cartesian methodological skepticism. The article examines Hussein's critical consciousness in the light of S.T. Kuhn's theory of scientific revolutions and asks some questions: Did Hussein bring about a revolution or an epistemological paradigm? Was Hussein working along an implicit epistemological blueprint in the interest of his own culture? Did he identify with that culture? And was he aware of the diversity of theories so as to choose consciously what is suitable to the Arab culture of the Day

ملخص

هذا المقال محاولة لمقاربة الوعي النقدي عند أحد أهم رواد حركة الثقافة النقدي في الثقافة العربية الحديثة ونعني به طه حسين الذي نقل إلينا نظرية الشك المنهجي الديكارتي.

يتفحص المقال الوعي النقدي لدى طه حسين باستثمار نظرية الثورات العلمية لـ "توماس كون" والتي من خلالها تتساءل عما إذا كان ما جاء به طه حسين ثورة أو "براديجم" معرفيا؟ وهل كان طه ملتزما بدفتر شروط معرفي ضمني يستجيب وفقه لما يخدم ثقافته؟ وهل كان متماهيا مع هذه الثقافة؟ وهل كان مدركا لقضية التفاوت بين النظريات بحيث كان اختياره واعيا لما يلائم الثقافة العربية يومها

رقدت حركة المثاقفة العربية المشهد النقدي العربي الحديث والمعاصر بنظريات ومناهج عدة متباينة المحاضن والنماذج المعرفية والفلسفية التي نبتت فيها، ولم تخل عمليتا الاستجلاب من البيئة الغربية والتوطين والازدراع في الثقافة العربية من رفض ومقاومة، تبعاً لعلاقات الشد والجذب التي تحكم الطرفين، مما فوت فرصة التقييم بصورة موضوعية تقوم على رصد المسارات وتفحص أسس الانتقاء مع تقييم إجراءات ذلك كله، وصولاً إلى تحديد الإيجابيات والسلبيات وأشكال الخلل والقصور.

بداية نسجل بأن حركة الثاقف النقدي الأدبي قد كانت في جوهرها حركة أفراد لا حركة مؤسسات، لأن دور هذه الأخيرة كان يقتصر - على المتابعة الإدارية للإرساليات التعليمية، بينما كان هؤلاء أحراراً في اختياراتهم لموضوعات الدراسة؛ أي أن المؤسسة المتابعة (الجامعات غالباً) كانت تهتم بشكل العملية أكثر من اهتمامها بموضوعها.

في ظل هذا الوضع ألقى رواد الثاقف بأنفسهم في عوالم ثقافية وحضارية وبيئات أكاديمية جديدة، دون إعداد يذكر، ودون أن يكون لديهم مشروع قد تبلور في أذهانهم أو تغلب على طموحاتهم الشخصية البسيطة؛ فرافعة رافع الطهطاوي ذهب في الأصل مع البعثة الطلابية إلى باريس "كي يتلو القرآن ويعظ الطلاب ويؤمهم في الصلاة، وعاد منها كي يترجم علوم الحضارة الأوروبية وفنونها.."، وطه حسين إنما كان يمّني نفسه بالذهاب للدراسة بفرنسا على أمل أن يعود "وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسية متعلمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة"، ويبدو أن هذا الطموح كان سبباً في استبقائه ليكون صاحب إحدى البعثتين اللتين فتحت الجامعة مجال التنافس للظفر بأحد المناصب فيها رغم أن الاختصاص كان يتعلق بالتاريخ والجغرافيا!

سعى طه حسين بكل الطرق ليكون له نصيب في إحدى البعثتين مركزاً على بعثة التاريخ حتى كان له ما أراد³.

إضافة إلى الملابس السابقة أشير إلى قضية ضعف امتلاك هؤلاء الرواد للغة التي ارتموا في خضمها ولثقافتها، في مقابل عدم تزودهم بها يمكن أن نسميه ورقة طريق خوض غمارها، مما يكشف شساعة المسافة بين الواقع والمأمول.

رغم هذا سنحاول الاقتراب من الوعي المصاحب لأحد رواد الحركة الثقافية الأدبية بصفة عامة والنقدية بصفة خاصة، وذلك ببسط بعض التساؤلات حول كيفية تعامله مع النظريات والمناهج التي واجهها؛ فالمعلوم أنها تتفاوت من حيث القيمة والأثر والتأثير فهل كان اختياره لإحداها بناء على قيمتها في حد ذاتها؟ أم بناء على أثرها وتأثيرها في حقلها الخاص؟ أم بناء على ذلك الأثر في ثقافة أمتها بصفة عامة؟ وما مدى الوعي الذي تحلى به في التعامل مع تلك النظريات والمناهج؟ هل جاء انتقاؤه بناء على حاجات الثقافة المحلية التي نشأ فيها، خصوصا أن لحظة الريادة بملاساتها المذكورة هي مظنة للسهو والأخطاء والمزالق؟ كما نسأل عما إذا التزم - ولو ضمنا - في فعله الثقافي بميثاق ضمني ما، حدد فيه تلك الحاجات والغايات، وضبط المجالات والحقول المستهدفة وفق سلم أولويات مرسومة أمامه؟ أم أن قرارات ما جاء به كانت ذاتية وغير خاضعة لاشتراطات من أية جهة كانت؟

تحاول هذه الدراسة أن تجيب عن جزء من الأسئلة السابقة بمساءلة "طه حسين" باعتباره من الرواد المؤثرين في حركة الثقافة؛ فهو أبرز موردي الشك المنهجي أو الديكارتي، ومن أبرز رواد التنوير في فضاء الثقافة العربية عامة، ومن أبرز رواد النقد المنهجي في الدرس النقدي العربي الحديث، لهذا فما هي القيمة المعرفية لمنهج الشك الديكارتي الذي ارتضاه طريقة في دراساته لتاريخ الأدب العربي؟

ستكون مقارنة هذا الموضوع بمنهج مركب من مكونات نظرية ومنهجية متعددة غرضها تفحص واختبار نسيج المفاهيم والمقولات والمصطلحات التي تشكلت وعي "طه حسين"، بغرض استكشاف صلابته وتماسك نظريته التي قال إنها "نظرية خطيرة"، والتي درس بها قضية الشعر الجاهلي.

والمقاربات ذات المنحى المركب قد ينظر إليها بعين الحذر، لأن بعض الأوساط تعدها ضربا من التلفيق، إلا أن الإقدام على خوض هذا المسلك ترسخ بفضل ما نراه في مجال فلسفة العلوم خصوصا فلسفة "الكواتم" داعية الاحتمالية؛ فالقول بمسألة "وحدة الكون" في هذه الفلسفة - مثلا - منح العلماء "الحرية في تطبيق المعرفة المتعلقة بفرع معين من فروع العلم على المشكلات التي تصادفها في فرع آخر"، وبموجب هذا التحول "ربما لم يعد العلم الآن-

بعد أن انتهى القرن العشرون - متصورا بوصفه نسقا راسخا المعالم كما كان، وأصبحت تسود العلوم علاقات بينية وتخصصات متداخلة ومتقاطعة ومزدوجة.. "، ولقد ألفينا في ظل هذا من يدعو بحماس ممزوج بروح النضال إلى وحدة المعرفة عبر تجاوز التعددية المنهجية Pluridisciplinarité والبين مناهجية Interdisciplinarité، بل إلى ما هو أبعد منها حيث يدعو إلى "بيغ - بانغ" منهجي سماه العبر مناهجية Transdisciplinarité في ميدان البحث العلمي الواحد، وانفتاح مناهج العلوم المتباعدة على بعضها.

وقد ساعدت موسوعية "طه حسين" على السير في هذا المنحى المنهجي لأنه فعلا "كلما اقترب منه الباحث أكثر فأكثر، وكلما حاول منهج ما أن يطوق ظاهرته ضاق بهذا المنهج وأبى أن يخضع له، فكلية تجربته تأبى أن تدعن إلى إجرائية هذا المنهج مهما انطوى هذا المنهج على مزايم الشمولية إن كانت دينية أو وضعية.."، لهذا استثمرت هذه الدراسة بعض المفاهيم والنظريات الاستمولوجية المختلفة .

من بين هذه النظريات نظرية الثورة العلمية التي عرضها "توماس كون" THOMAS KUHN في كتابه "بنية الثورات العلمية"؛ فما هو مفهوم الثورة حسب هذه النظرية؟ وما هي مقولاتها؟ وهل يمكن عدُّ ما جابه "طه حسين" في كتابه "في الشعر الجاهلي" ثورة؟

نظرية الثورة

الثورة في هذا المقام ليست مدحا ولا قدحا، وإنما هي نظرية حاولت تفسير مسار تطور العلم والعلوم ومقاربة تحولاته وتغيراته واكتشافاته.

ترى هذه النظرية أن تلك التحولات تأتي على شكل ثورات، والثورة بحسب كون هي : "سلسلة الأحداث التطورية غير التراكمية، التي يُبدلُ فيها نموذج إرشادي قديم، كليا أو جزئيا، بنموذج إرشادي جديد متعارض معه." (9)؛ فهي عملية تغييرية يلتحم فيها الجديد والقديم في معركة وجود، فتظهر أسئلة وإجراءات جديدة مغايرة لما هو سائد، تفضي- إلى تفسيرات وحلول جديدة، يتحسس النموذج القديم منها ويجاهها بالفرض، لما يستشعره من انحراف عن تصوراته وآلياته وإجراءاته، إذ يؤكد توماس كون بأن "الثورات العلمية قد لا

تبدو ثورية بالضرورة إلا في نظر أولئك الذين تأثرت نماذجهم الإرشادية بها¹⁰، وبسبب من هذا فإن العلم القياسي " .. غالبا ما يجمع الإبداعات الجديدة الأساسية لأنها تدمر بالضرورة التزاماته واعتقاداته الراسخة"¹¹، وقد نسج "توماس كون" من خلال جدلية الجديد ورد فعل القديم نظرية الثورة التي يعرفها في موضع آخر بأنها: "هذه السلسلة من الأحداث الخارجة عن المؤلف والتي تقع خلالها تلك النقلة المتمثلة في تعديل الاقتناعات لدى أهل الاختصاص .."¹² وهذه الأحداث التي تنجم عنها تلك النقلة المعدلة للقناعات " ..هي... التي تصفها هذه الدراسة بأنها ثورات علمية. إنها ثورات تزلزل التقليد، وتكمل النشاط المرتبط بتراث العلم القياسي."¹³ وفيها يبرز أصحاب النماذج الإرشادية أو "البراديجمات" "PARADIGMS" المستقرة المستهدفة بالتغيير، متحسين من ظهور نماذج ثائرة أو "براديجمات جديدة" ترزعق قواعدهم.

في مقابل هذا التحسس يتزايد اقتناع العلماء أصحاب النموذج الجديد " بأن أحد النماذج الإرشادية القائمة قد كف عن أداء دوره بصورة كافية في مجال اكتشاف جانب من الطبيعة سبق أن وجه البحوث الخاصة بهذا النموذج الإرشادي ذاته"¹⁴ فيندفعون متحمسين للاكتشاف ثقة منهم أن التصدي للجديد مؤثر قدرتهم على تجاوز المهيمنات النموذج السابق.

لا يكتمل المعنى الإجمالي لنظرية الثورة العلمية إلا إذا حاولنا تقديم أهم المقولات التي جاءت بها وسيقتصر الحديث على أشهرها (النموذج الإرشادي - العلم المعياري - العلم الشاذ)، ونظرا لارتباط هذه المفاهيم ببعضها أقدمها في صورة نسقية تُبرِّزُ ترابطها، ويبرز كيف أن النموذج الإرشادي قاطرة تجر المفاهيم الأخرى.

المقولات الأساسية لنظرية الثورات

تعد المقولات والمفاهيم والمصطلحات مفاتيح أساسية للنظريات، لما لها من دور ضابط للعملية الإدراكية والمعرفية، وقد تضمنت نظرية "توماس كون" مجموعة من المقولات الأساسية يكاد أن يتوقف فهمها واستيعابها على الإحاطة بها، وأهم ما ورد منها في هذه الدراسة:

النموذج الإرشادي (الباراديفغم) [PARADIGM] مقولة من أهم المقولات الأساسية في نظرية "توماس كون"، وتتميز هذه المقولة بكونها جاءت "على درجة عالية من الغموض" ¹⁵، فمفهومها ليس واحدا عند صاحبها نفسه، كما أنها أثارت الكثير من الجدل والملاحظات والتعليقات، إلا أن ما يهمنا في هذا المجال هو أن نستصفي مفهومها وظيفيا خادما لهذه الدراسة. فما هو النموذج الإرشادي "بحسب هذه النظرية؟

ذكر "توماس كون" النموذج الإرشادي بشكل موجز في الصفحات الأولى من كتابه "بنية الثورات العلمية"، ورغم إيجازه فقد قرّب مفهومه ولو بصورة عامة حيث حدده بأنه تلك: "الانجازات العلمية المعترف بها عالميا والتي تمثل في عصر- بذاته نماذج للمشكلات والحلول بالنسبة لجماعة من الباحثين العلميين" ¹⁶؛ فالنموذج هو العلم المستقر الذي رسخ آليات وإجراءات محددة أثبت مرّ الأيام فعاليتها في حل الكثير من المشكلات المعرفية والعلمية حتى صارت وصفة موحدة يلتزم بها البحث والباحثون التزاما أرثوذكسيا يصل إلى حد أن يصبح البحث العلمي "محاولة عنيدة ومتفانية لوضع الطبيعة قسرا في الأطر المفاهيمية التي زودنا بها النظام التربوي التعليمي". ¹⁷، يستمر هذا الالتزام ما لم تر بعض العقول العلمية المبدعة ما يريها في صحة إجراءات النموذج، أو ما لم ير بعض الباحثين من الظواهر والمستجدات ما يُعجز نموذجهم، أو ما لم يصل أحد العلماء أو الباحثين إلى اكتشاف ولو بمحض الصدفة لإجراءات جديدة على سبيل التفكير بشكل مستقل عن النموذج المهيمن، فيتزعزع النموذج القديم جارفا معه النظريات السائدة، في هذه الحالة نكون أمام بداية النهاية للنظريات والنماذج الإرشادية السابقة التي يسميها (العلم المعياري) NORMAL SCIENCE ¹⁸ بالنظر لاستقرار قواعدها وإجراءاتها وانطباق العقول بها لمدة طويلة، والنموذج الإرشادي والعلم المعياري مصطلحان يترافقان في نظرية "توماس كون"، إذ يردان مقترنين في فقرات مختلفة من فصول الكتاب، لارتباطهما ارتباطا وثيقا بحكم أن "النموذج الإرشادي... ينظم العلم القياسي" ¹⁹، وهو ارتباط قوي يصل إلى حد أن مفهوم النموذج الإرشادي لا يتضح معناه إلا بإيضاح مفهوم العلم المعياري، وتعريفه أنه: "البحث الذي رسخ بنيانه على إنجاز، أو أكثر، من إنجازات الماضي العلمي، وهي إنجازات يعترف مجتمع علمي محدّد، ولفترة زمنية، بأنها تشكل الأساس لممارساته العلمية مستقبلا". ²⁰، ومع تجذر

ممارساته، تتبني جماعة علمية ما هذا العلم القياسي عبر المناهج والكتب الدراسية من المستويات القاعدية إلى المستويات العليا حيث تضمن له استقرارا في الزمن، وهيمنة على عقول أجيال كاملة، فهو " مشروع تراكمي بدرجة عالية ناجح بصورة رائعة في بلوغ هدفه وهو الاتساع المطرد في مدى ودقة المعارف العلمية. وهو في هذا كله يتسق بدقة كبيرة مع الصورة المألوفة لدينا تماما عن العمل العلمي"²¹ وبفضل هذا الاتساع في المدى ودقة المعارف العلمية وتآلف الأجيال معه، تخلق هذه الأجيال "تقاليد متجانسة و متميزة للبحث العلمي"²²، وتظل هذه التقاليد متوارثة كنموذج إرشادي لا يتسنى لأحد الشك في جدواه، لأن عقول أجيال ارتسمت بتصوراته وتمرن على إجراءاته في ترتيب خطوات البحث والحل والكشف، مما أهلها لإيجاد الحلول لمشكلات الحقل المعرفي الذي تشغل فيه، بل إن هذه الأجيال بمرور الوقت تصبح جنودا لهذا العلم المعياري، فتتغاضى وتنمط أساليب ممارساتهم العلمية بحيث، "لن تؤدي، إلا نادراً، إلى أي اختلاف صريح بشأن المبادئ الأولية، فإن الباحثين الذين يركزون أبحاثهم على نماذج مشتركة فيما بينهم ملتزمون بذات القواعد والمعايير للممارسة العلمية. وهذا الالتزام، وما يندرج عنه من إجماع واضح في الرأي، يمثلان الشروط الأولية للعلم القياسي، أعني شروط نشوء واستمرارية تقليد بحثي بذاته"²³، وما ذلك إلا لكونه صار نموذجا إرشاديا ثابوا في بنيتها العقلية، وهذه المكاسب لا تتحقق للعلم المعياري إلا "لأنها جمعت بين خاصيتين جوهريتين. كانت إنجازاتها عظيمة الشأن غير مسبوقه...، وكانت في الوقت ذاته مفتوحة رحبة لم تزعم أنها فصل الخطاب."²⁴ بناء على هذا قرر "توماس كون" عند الحديث عن "السييل إلى علم قياسي" بأنه سيتحدث عن "الإنجازات التي تجمع هاتين الخاصيتين بوصفها "نماذج إرشادية"²⁵. مع تذكيره للقارئ بأن هذا المصطلح يرتبط "ارتباطا وثيقا بعبارة العلم القياسي..."²⁶.

من خلال هذا الاستعراض الموجز لمفهوم النموذج الإرشادي والعلم المعياري تبلور مقولة الثالثة ونعني بها العلم الشاذ EXTRAORDINARY SCIENCE²⁷ على ما في التسمية من قدح - الذي ينبثق من العلم المعياري بنموذجه الإرشادي، لكن هذا الانشقاق يأتي نتيجة "حصار سهو، أو ثمار غير متعمدة خلال أداء اللعبة وفق مجموعة من القواعد، ويقتضي - استيعابها

صوغ مجموعة أخرى من القواعد.²⁸، وهذا الوصف القادح قد يؤكد ما سبق لتوماس كون وأن أشار إليه بأن "الثورات العلمية قد لا تبدو ثورية بالضرورة إلا في نظر أولئك الذين تأثرت نماذجهم الإرشادية به"²⁹، وقد يعني شذوذ العلم القياسي عن معايير الثابتة وقواعد نموذج الراسخة، وهذا ما يقره توماس كون بالقول صراحة "يشذ العلم القياسي ويخرج عن الطريق"³⁰، وبفعل هذا الشذوذ تبدأ البحوث غير المألوفة التي تهدي أهل العلم في آخر المطاف إلى مجموعة جديدة من المعتقدات، أي إلى أساس جديد للممارسة العلم في التطبيق العملي"³¹ من هذا التعريف يمكن القول بأن كل علم معياري بنموذجه الإرشادي كان علماً شاذاً، وفي المقابل يغدو كل علم شاذ، علماً معيارياً بمجرد استقرار قواعده وإجراءاته.

اعتماداً على ما توصل إليه فهمي المتواضع سأحاول نقل نظرية الثورة العلمية بلواحقها المصطلحية وإسقاطها إلى ميدان الأدب ودراسات التاريخ الأدبي، مستوحياً أسئلة افتراضية أساسية من هذه النظرية، مفادها: هل يمكن إدراج ما جاء به "طه حسين" تحت مسمى الثورة بمفهومها عند "توماس كون"؟ وهل جاء "طه حسين" فعلاً بما يؤسس "لنموذج إرشادي"، أو "براديجم" "PARADIGM" جديد؟ وهل يمكن أن نعدّ ما لاقاه من رد فعل، مقاومةً من النموذج الإرشادي القديم؟..

تاريخ الأدب العربي من التوثيق الإحيائي إلى النقد المتشاقف

إن فرضية عدّ ما جاء به "طه حسين" ثورة بمعنى ما جاء به "كون" قد يتضمن مضمرة (des non-dits) عدة؛ فالتسليم بها يقتضي - أن نصدق بأن "نموذجاً إرشادياً" عربياً، أو نظرية أو منهجاً لدراسة التاريخ الأدبي العربي قد سبق "طه حسين" إلى الوجود، حيث أفضت ممارساته الراسخة إلى اكتشاف عيوبه، أو أن ظواهر وإشكالات جديدة قد تكشفت ولم يستطع النموذج الراسخ أن يجد لها حلاً.

إن هذه المضمرة وغيرها لا يمكن المجازفة بتخطيها دون كشف بعض الملابسات التاريخية وتحليلها؛ فالقول بوجود نموذج إرشادي، أو جماعة علمية أو نظرية أو منهج لدراسة التاريخ الأدبي قبل "طه حسين"، ليس من السهل أن تصدقه وقائع التاريخ ما لم نميز بين

واقعين مختلفين لكن جوهرهما واحد، هما واقع علم التاريخ الأدبي، وواقع تدريس التاريخ الأدبي؛ فالأول كان علما حديث النشأة والتكوين في الدراسات الأدبية الأوروبية؛ إذ .. ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر- وظل مجهولا في الشرق حتى اشتد خلطه بالغرب"³²، أي أنه كان في مرحلة التوطين والتهيئة في الدراسات الأدبية العربية على يد المستشرقين أساسا، مع ما في هذه العملية من توجس ونفور بالبدايات المميز للمحافظين، والعمل على الإيلاف والأقلمة من طرف المندفعين للتقبل؛ أي أنه كان في حاجة إلى وقت للاطلاع عليه وتقبله والتفاعل معه بشكل إيجابي، وتمثله بصورة مفيدة ونافعة، تتجاوز الصيت السيء لأي جديد يشتغل على التراث؛ فعادة ما تكون الدعوة مريبة خصوصا إذا ارتبطت بالمستشرقين أو تلاميذهم المستغربين من الأساتذة العرب، كما هو شأن هذا العلم وداعيته "حسن توفيق العدل" (1862-1904) الذي تعلم التاريخ الأدبي بألمانيا طالبا، وتمثله بدار المعلمين مدرسا³³.

أما تدريس التاريخ الأدبي فقد كان جامع الأزهر نموذجا في ذلك، إلا أن واقعه التعليمي كان بعيدا عما استجد في حقل علم التاريخ الأدبي ويفتقد لرؤية المنهج المستحدث، كما كانت تهيم عليه النظرة المهتمة بالجوانب اللغوية الفيلولوجية التوثيقية ذات المنزع الإحيائي والغرض التعليمي³⁴.

يمكن القول بأن تعلق مدرسي الأزهر بهذه الطريقة يقابل ارتباط أصحاب النماذج الإرشادية بنماذجهم المهيمنة التي انطبعت عقولهم بها، وعليه فإن التعويل على قوة هذا الارتباط يساعد على مساندة افتراضات هذه الدراسة وأولها عدُّ مناويل تأليف كتب التراث وما جاء فيها من أخبار، علما معياريا، لأنها ذات منجز متحقق ومجسد ومتبع، وثانيها اعتبار قواعدها ومقاييسها نموذجا إرشاديا موجهها، انتظم في إطاره الشيوخ أصحاب مؤلفات تاريخ الأدب ذات الصبغة التعليمية، وسيّر حركة تأليفهم، حيث صاغوا قواعد تحقيقها وشرحها وإحيائها، مع الإشادة بها وبتقافتها وحضارتها الحاضرة لها، واتبعوا قواعدها ومناهجها في التأليف وكتابة التراجم والسير كتاريخ للأدب، إيمانا منهم بأن تلك القواعد والمناهج علم ثابت يظل دون تغيير ولا تبديل.

من هذه الزاوية - زاوية قوة ارتباط أصحاب مؤلفات التاريخ الأدبي الإحيائي بمناهج كتب التراث الأدبي - يسوغ لنا القول بأن ما جاء به "طه حسين" يعدُّ ثورة على نموذج إرشادي سابق - وهو الافتراض الثالث والأخير في هذه الدراسة -

فما هي حقيقة هذه الثورة يا ترى؟ وما هي المشاكل التي قدّر "طه حسين" أن النموذج الإرشادي السابق قد عجز عن حلها؟

النموذج الإرشادي السابق في نظر طه حسين

تجلى تشخيص "طه حسين" للنموذج السابق عند مقارنته بين مناهج تدريس شيوخ الأزهر ومناهج تدريس الأساتذة المستشرقين بالجامعة، حيث جرّته المقارنة إلى شكاوى متكررة من المستوى الهزيل لأساليب التدريس بالأزهر أين تلقى تاريخ الأدب وغيره فيه، وتعدُّ شكواه في صميم نقد النموذج السابق، ووظيفة هذه الشكاوى مزدوجة؛ فهي بقدر ما تنطوي على مستجدات الدرس الأدبي التي لم يواكبها النموذج السابق، وتكشف مشاكله وعيوبه، يمكنها أيضا أن تكون مؤشرا على ثورة "طه حسين" على النموذج السابق منذ مواجهاته الأولى مع الأزهر وشيوخه، مما يفتح أمامنا مسلكا للتعرف على محور ثورته المفترضة.

كان واقع تدريس التاريخ الأدبي بالأزهر وما أنتجه من مؤلفات في هذا المجال، مصدر نفور وتبرم لـ "طه حسين"، دفعه للبحث عن بديل له بعدما قدّر أنه صار عائقا ثقيلًا أمام النهضة الفكرية، وأنه لا يمكن للدراسات الأدبية أن تتطور ما لم .. نستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برّأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمانية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا..³⁵، وهذا التوجه كان بارزا في كتاباته الأكاديمية الأولى؛ ففي أطروحتة "تجديد ذكرى أبي العلاء" يفتتح مقدمتها بالحديث عن واقع تدريس الأدب عامة والتاريخ الأدبي خاصة، إذ استهله بالإقرار بفضل أستاذه "سيد علي المرصفي" الذي أثر في تكوينه تأثيرا وصل إلى حد الزعم بأن ذوقه اصطبغ بذوق الأستاذ³⁶. قاده هذا الإقرار إلى

عرض منهج أستاذه في تدريس الأدب، ومقارنته بمنهج أساتذته المستشرقين في الجامعة الأهلية بمصر.

بمقارنة راصدة يمكن تحديد المستجدات أو المشاكل التي عجز النموذج السابق عن إيجاد حل لها؛ فمنهج "سيد علي المرصفي" يقوم على التركيز على الإعراب، والحفاوة بمذهب القدماء من تفضيل للألفاظ البدوية الفخمة التي لا تشوبها شائبة من الألفاظ الحضرية السهلة أو النزول إلى مقتضى الضرورة الشعرية، وهذا المذهب - حسبه - أقرب إلى مذهب أئمة اللغة ورواة الشعر القدماء. يبرز "طه حسين" أن حفاوة أستاذه "المرصفي" يقابلها نفور ممزوج بالبغض والتحذير من كل ما هو قديم، وما هو محدث يصطنع البديع والفلسفة والمنطق، لأن مدارسته إفساد للذوق والعقل معا، وقد غرس الأستاذ نفوره في ذوق طلبته حتى صار "المتنبي" و"أبو العلاء" وغيرهما من المحدثين نماذج يستشهدون بها عند تقبيح وذم ما لا يعجبهم من الشعر³⁷.

ما يمكن تسجيله هو أن من يقرأ بعضا من هذه الفقرات قد يترد بداية في تحديد مغزاها؛ أهي مدح أم ذم لـ "سيد علي المرصفي"؟ لولا حديثه الموالي عن دراسته بالجامعة الذي يكشف ذم الطالب لشيخه وسعيه للتخلص من معظم ما أخذه عنه؛ ففي هذا الحديث يقارن بين دراسته بالأزهر ودراسته الجامعية الجديدة مبرزا انبهاره بمنهج الأساتذة المستشرقين من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، أين اكتشف طرقا تدريسية وعلوما بينية وفنونا أدبية وشرطا علمية جديدة لا قبل له بها³⁸. حيث يتضح أنه قد نزع جبة "أستاذه الأزهرى" يقول "... فلم يبق من هذه الآثار الحسان التي تركها الأستاذ المرصفي في تلك النفس الناشئة إلا دقة النقد اللفظي والحرص على إثارة الكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ وحصانة الأسلوب"³⁹، ولم يتردد في تحميل طريقة المرصفي وزر نفور الطلبة من الأدب العربي القديم، حيث صاروا "... يؤثرون - ولهم العذر - أن يقرأوا آداب الفرنجة ويهيموا بها..⁴⁰، وثمرة هيام التلاميذ بآداب الفرنجة هي نشوء ظواهر أسلوبية وفنية جديدة في الشعر والنثر "... يتأذى بها رجال المدرسة القديمة في الآداب من غير أن يستطيعوا لها مردداً"⁴¹.

نظرية "طه حسين"

إذا لم يكن من السهل البرهنة بأن ما جاء به "طه حسين" كان ثورة بالمفهوم الاصطلاحي لنظرية العلم عند "توماس كون" إلا أن هذا لا يعني أن ما أتى به لم يُحدث ثورة، لهذا تتساءل ما فحوى النظرية التي اختارها "طه حسين"؟ وما هو الجديد الذي قدّمته؟ وما قيمتها العلمية؟

اختار طه حسين منهج ديكارت القائم على الشك والمعروف أن هذا المنهج يبحث في أصل الأشياء وقيمة مبادئ العقل النقية من كل المسبقات والمصادرات، وهذا ما يعني أن "طه حسين" قد نقله إلى إطار تاريخ الأدب، حيث حدد موضوعه بالقول " .. بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق."⁴²، وهو موضوع يتنازع حوله أنصار القديم الذين يخاصمهم، وأنصار الجديد الذين يتزعمهم، ومادام الموضوع بهذا التعقيد والإثارة لم يجد سوى عرض مذهب الطرفين المتنازعين حوله؛ حيث بدأ باستعراض مذهب أنصار القديم فأبرز أن مجال البحث أمامهم يقتصر - على ترديد ما هو متداول بين العلماء القدماء، ونقله في اطمئنان لا يقوده إلى أي تغيير في الأدب " .. وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئاً وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان إلى ما قال القدماء وأغلقوا على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام"⁴³، وخلاصة رأيهم - بحسبه - تقوم على أساس يقين متأتى من إجماع علماء مختلف الأمصار على وجود هذا الشعر الجاهلي، ووجود الشعراء الجاهليين بأسماء وألقاب معروفة، لهم شعرهم المتناقل بالرواية مشافهة إلى غاية عصر- التدوين، وليس لأنصار القديم أمام إجماع العلماء القدماء سوى مناقشة بعض الجزئيات المتعلقة بتفاوت الروايات وضبطها أو ضبط بعض الأسماء والألقاب، والترجيح بينها دون تجاوز لما جاءوا به.⁴⁴، لهذا يرى أن الطريق أمام أنصار القديم " .. واضحة معبّدة، والأمر عليهم يسير."⁴⁵، ويسجل عليهم أنهم بهذا الاطمئنان " .. لم يغيروا في الأدب شيئاً وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئاً وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان إلى ما قال القدماء."⁴⁶، لهذا يدعو إلى عدم الانخداع بصور التجديد عندهم لأن " .. ذلك كله عناية بالقشور والأشكال لا يمس اللباب ولا الموضوع " ..⁴⁷. وصور التجديد عندهم لا تتجاوز العناية بتقسيم تاريخ الأدب إلى عصور

مع إدخال بعض الترتيب والتنظيم في تأليف ذلك⁴⁸، لكنه لا يمثل لما يذهب إليه بأي مؤلف من المؤلفات الرائجة وهذا ما يدعو إلى التساؤل عن صدقية أحكامه المرسله.

بعد أن ينهي حديثه عن القدماء ومذهبهم يعرض مذهبه فيتدئ بالحديث عن أنصار الجديد، فهم أهل شك وقلق واضطراب، يجدون لذتهم في ذلك، فيشكّون في ما أجمع عليه القدماء، فيقدر اطمئنان هؤلاء يستبد الشك بأولئك إلى حد الطعن في ما كان يقينا راسخا عند الناس منذ أقدم الأزمان، ولا ينتهي شكهم .. عند هذا الحد، بل هو يجاوزه إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثرا. فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ. وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يباح الشك فيها⁴⁹، إنهم مثلا .. يتساءلون: أهنالك شعر جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وبم يمتاز من غيره؟ ... هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن أولئك من جرهم، وهؤلاء من ولد اسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات ..⁵⁰، ولا يجد أنصار الجديد لهذه الأسئلة جوابا، ولا توصلهم إلا إلى حقيقة واحدة ووحيدة هي أن .. القدماء يرون ذلك ..⁵¹، وهذه الحقيقة الوحيدة التي يعرفونها لاتسلم هي الأخرى من الشك، فالقدماء يخطئون ويصيبون، لهذا يكون من حق أنصار الجديد .. أن يتبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟⁵²، وهذا الكلام يوحي إن لم نقل أنه يصرح بأن الإطار البحثي الدقيق لنظرية "طه حسين" إنما هو نقد العلم، وبحسب رأي "طه حسين" فإن طريق أهل الجديد .. معوجة ملتوية تقوم فيها عقاب لاتكاد تحصى.. وهم لا يكادون يمشون إلا في أناة وريث هما إلى البطء أقرب منهما إلى السرعة ...⁵³.

يجزم "طه حسين" بأنه قد تسلط عليه شك كاليقين بأن أغلب ما يحسب من الشعر الجاهلي وما يُقرأ من شعر امرئ القيس وطرفة وابن كلثوم وعنتره، متتحل ومن وضع الرواة والقصاصين والأعراب والنحاة والمفسرين والمحدثين والمتكلمين؛ فهو قد قيل بعد مجيء الإسلام، ويعكس الحياة الإسلامية وأهواءها أكثر مما يعكس حياة وأهواء الجاهليين، وأنه لم يبق من الشعر الجاهلي سوى القليل الذي لا يكفي لتمثل صورة العصر الجاهلي⁵⁴، وبحسبه فإن هذه النتيجة لا يمكن تقبلها إلا إذا تحدثنا عن ملابسات الحياة السياسية بعد الإسلام

وظروف الفتح وانعكاس حال أهل البلاد التي تعرضت للفتح على اللغة والأدب، وكذا نشأة العلوم الدينية وما لهذه النشأة من صلات بالأدب واللغة، ولا بد أن يشمل حديثه الوجود اليهودي في بلاد العرب قبل وبعد مجيء الإسلام وعلاقته بالأدب العربي، وكذلك الشأن بالنسبة للمسيحية وتأثيرها في الحياة العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية العربية، ولا تنتهي تداعيات هذه النتيجة الخطرة إلا بتتبع بصمات كل المؤثرات السياسية الخارجية في الشعر الجاهلي قبل الإسلام والمتحل بعد مجيئه⁵⁵ ليخلص قائلًا بأن "هذه المباحث التي أشرت إليها سنتتهي كلها إلى تلك النظرية التي قدّمتها: وهي أن الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي في شيء".⁵⁶، ويستدرك على تلك المقترضات كلها بأن لديه إجراء منهجيا آخر يظنه "... أقوى دلالة وأنهض حجة من المباحث الماضية كلها، ذلك هو البحث الفني اللغوي"⁵⁷، أي أن الدراسة الفنية اللغوية التطبيقية ستكشف لنا أن المستوى الفني واللغوي لقصائد الشعراء الجاهليين يعود إلى ما بعد مجيء الإسلام وبالتالي "... لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله..."⁵⁸، وهذه الأشعار في نظر صاحب النظرية إنما اختلقت ليستشهد بها العلماء على ما استجد أمامهم من قضايا العلوم الناشئة.

من الواضح أن "طه حسين" لم يأت بجديد فالحديث عن الانتحال معروف منذ ابن سلام الجمحي، ومجمل ما قام به هو نقل البحث من مستوى التاريخ الأدبي إلى مستوى نقد العلم دون أن يقدم بديلا منهجيا، وبهذا وسع دائرة الشك وبدد هالة القديم، فوضع علم القدماء موضع الدراسة والنقد دون أن يحاكمهم إلى مناهجهم وأفق عصرهم. صحيح القول بأن المنهج العلمي "... يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعي أو أصاب، ووفق أبو عبيدة أو لم يوفق، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق"⁵⁹، ويمكن التغاضي عن محاولة وضع "... علم المتقدمين كله موضع البحث"⁶⁰، ويمكن أيضا تقبل استدراكه غير الجاد بأنه نُسي... لأنه لم يرد القول وضع علم المتقدمين موضع البحث "إنما أريد أن أقول الشك. أريد أن ألقب شيئا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان"⁶¹، لكن السؤال الذي يظل مفتوحا ماهي نظرية طه حسين حول الموضوع؟ وعلام يستند منهجه في الشك؟

من خلال هذه النماذج يمكن أن نسجل ما يلي:

1. الوعي المنهجي النقدي لأي ناقد يتجلى في قدرته على إدراك الخصائص النسقية التي تشكلت فيها المناهج والنظريات النقدية المستجلبة، بحيث يميز بين الخاص والعام منها، أي بين ما يمكن أن يرقى لأن يكون نموذجا عاما تتقاطع فيه التناجات الفكرية على اختلاف ثقافتها والحواسن الخاصة، وبين ما يمثل خصيصة ثقافية أو فردية تستعصي على الانغراس في ثقافة غير ثقافتها أو بيئة غير بيئتها، وكل إصرار على عكس ذلك يكون مغالبة لسنن الثقافة التي تحكم الثقافات والحضارات، وهنا يظل التساؤل مطروحا عما إذا كان منهج ديكارت الذي يبحث في أصل الأشياء وقيمة مبادئ العقل الخالصة من كل القبلية، صالحا للاستغال في حقل علمي يقوم منهجه على الوثائق والمخطوطات والمستندات الأثرية أساسا؟

2. الثورة التي تنبأ بها "طه حسين" لنظريته تختلف عن مفهوم الثورة العلمية التي يتحدث عنها توماس كون، فهذه تستلزم نموذجا علميا قائما بممارساته وأدائه العلمية التي تعجز عن مواكبة مستجدات وتطورات محددة، وهو ما عجز طه حسين عن البرهنة عليه، فمهما سلمنا له بصحة أحكامه على النموذج السابق فإنه في نهاية عرضه لما أقدم عليه ظل يردد "... وأنا أعتز منذ الآن بأن هذا البحث عسير كل العسر، وبأنني أشك شكاً شديداً في أنه قد ينتهي بنا إلى نتيجة مرضية..."⁶². وسبب هذا هو أنه لم ينطلق من منهج دراسي ولا من نظرية في التاريخ الأدبي بقدر ما كان يبشر بنظرية فلسفية في حقل الدراسات الأدبية ذات المناهج المتباينة بحسب مواضيعها.

3. اختيار "طه حسين" لنظرية الشك المنهجي الديكارتي جاءت من منطلق أثرها في النهضة الغربية، لكنه فيما يبدو كان بعيدا عن مواكبة مآلات هذه الفلسفة في بيئتها وداخل نسقها الثقافي حيث تعالت دعوات لمراجعة أسسها وتجاوزها في معالجة الأزمت الجديدة ولعل الفلسفة الفينومينولوجية بريادة إدموند هوسرل كانت أقرب إلى طه حسين يومها إذ كان صوت هوسرل هو الأعلى حيث انطلق من ديكارت وفلسفته في صياغة حلول

للمستجد من الآزمات لهذا قامت فلسفته على أرضية ديكارتية بالأساس، وشتان بين عودة من داخل النسق وعودة من خارجه فالأولى تتجاوز والثانية تتمثل⁶³.

الإحالات

- 1 . رفاة رافع الطهطاوي: الأعمال الكاملة، التمدن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، مصر، ط1، 2010، ج1 ص40. والعبارة المقتطفة للدارس المحقق.
- 2 . طه حسين: الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، ص366.
- 3 . الأيام: م س، ص367.
- 4- وصف "طه" نظريته بهذه الصفة انظر كتابه، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، 1997، ص20
- 5- عبد الفتاح مصطفى غنيمه: نحو فلسفة العلوم الطبيعية، سلسلة تبسيط العلوم، كلية الآداب، قسم علم النفس، جامعة المنوفية، مصر، د. ت، د. ط، ص245
- 6- يمى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الكتاب رقم264، د. ط، 2000، ص227
- 7- انظر ص9 و10 و11، من كتاب بَسْرَاب نيكولسكو: العبرمناهجية، تر: ديمتري أفبيرينوس، دار مكتبة إزيس، دمشق، سورية، ط1، 2000
- 8- م ن: ص ن
- 9- توماس كون: بنية الثورات العلمية، تر: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الكتاب رقم:168، ديسمبر 1992، ص131. (نسخة إلكترونية).
- 10- م ن، ص132
- 11- م ن، ص34
- 12- م ن، ص ن
- 13- م ن، ص ن
- 14- م ن، ص ن
- 15- ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم، المشكلات المعرفية، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2000، ص76
- 16- توماس كون: بنية الثورات العلمية، م س، ص، 22
- 17- م ن، ص34

- 18- يترجمه شوقي جلال بالعلم القياسي، أما ماهر عبد القادر فيترجمه بالعلم السوي، وأتصور أن الترجمة الأقرب لروح المعنى هي العلم المعياري
- 19- توماس كون: بنية الثورات العلمية، م، س، ص 88
- 20- توماس كون: بنية الثورات العلمية، م، س، ص 39.
- 21- توماس كون: بنية الثورات العلمية، م، س، ص 87.
- 22- توماس كون: بنية الثورات العلمية، م، س، ص 40.
- 23- م ن، ص ن
- 24- م ن، ص ن.
- 25- م ن، ص ن.
- 26- م ن، ص ن
- 27- نحسب أنه الأنسب لتوجه نظرية توماس كون REVOLUTIONARYSCIENCE يذكر ماهر عبد القادر مصطلح
- 28- م ن، ص 88
- 29- م ن، ص 132
- 30- توماس كون: بنية الثورات العلمية، م، س، ص 34
- 31- م ن، ص ن
- 32- حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار تحفة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د ط، د ت ص 4، الهامش رقم 1
- انظر: حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، م، س، ص 4، الهامش رقم 331-
- 34- انظر: ناظم عودة: تكوين النظرية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص 180 وما بعدها
- 35- طه حسين: في الشعر الجاهلي، م، س، ص 24.
- 36- انظر طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، مصر، ط6، 1963، ص 5.
- 37- انظر م س: ص ص 5، 6.
- 38- انظر م م، ص ص 6، 7.
- 39- م ن، ص 7
- 40- م ن، ص ن.
- 41- م ن، ص ن.

- 42- طه حسين: في الشعر الجاهلي، م س، ص15
- 43- طه حسين: في الشعر الجاهلي، م س، ص ص16، 17
- 44- انظر طه حسين: في الشعر الجاهلي م س، ص ص15، 16
- 45- م ن، ص15
- 46- م ن، ص16
- 47- م ن، ص16
- 48- انظر: م ن، ص ن
- 49- م ن، ص15
- 50- طه حسين: في الشعر الجاهلي، م س، ص ص17، 18
- 51- م ن، ص18
- 52- م ن، ص ن
- 53- م ن ص17
- انظر م ن، ص، ص19، 20⁵⁴-
- 55- انظر: م ن، ص ص20، 21
- 56- م ن، ص21
- 57- م ن، ص ن
- 58- م ن، ص ن
- 59- م ن: ص ن
- 60- م ن: ص ن
- 61- م ن: ص ن
- 62- م ن، ص22
- 63- انظر: سعد البازعي: استقبال الآخر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2004، ص 104 وما يليها.

تاريخ الإيداع / 2015/01/15